

حضور السيرة الذاتية في المتن الروائي العربي

– قراءة في التجربة السيرية الكولونيالية وما بعد الكولونيالية في الجزائر –

The presence of autobiography in the Arabic narrative text
A reading of the colonial and post-colonial biographical experience in Algeria -

د. شعيب زياد

جامعة العربي بن مهيدي-أم البواقي (الجزائر)

chouaib.ziad@univ-oeb.dz

د. إيمان مرداسي*

(جامعة عباس لغرور خنشلة) (الجزائر)

Meraci.imene@univ-khenchla.dz

تاريخ الارسال 2025-04-20 تاريخ القبول 2025-04-29 تاريخ النشر 2025-09-16

الملخص:

لقد كان لاهتمام الدارسين والباحثين في مجال الأجناس الأدبية أثر كبير على الأدب العربي الحديث والمعاصر؛ حيث شهد اتساعا كبيرا في فنونه وأغراضه (رواية، قصة، سيرة ذاتية...)، وتفاعل بشكل ملحوظ مع آداب الأمم الأخرى حيث أمست هذه الفنون جزءا لا يتجزأ من أدبنا العربي، وإذا كان الحديث في هذا المقام مخصصا لفن "السيرة الذاتية" دون سواها من الأجناس الأخرى، كان من الحفي بنا أن نتعرف أكثر على نشأتها وعلاقتها بفن الرواية التي كثيرا ما يقع بينهما نوع من التماهي مع التركيز على تجلياتها في الأدب العربي عامة والجزائري خاصة.

كلمات مفتاحية: السيرة الذاتية، الرواية، الكولونيالية، ما بعد الكولونيالية، الأدب

Abstract:

The interest of scholars and researchers in the field of literary genres has had a great impact on modern and contemporary Arabic literature. It witnessed a great expansion in its arts and purposes (novel, story, autobiography...), and interacted significantly with the literatures of other nations, as these arts became an integral part of our Arab literature, and if the discussion in this place is devoted to the art of "autobiography" without... Other than other genres, it would have been appropriate for us to learn more about its origins and its relationship with the art of the novel, between which there is often a kind of identification, with a focus on its manifestations in Arabic literature in general and Algerian literature in particular.

Keywords: Autobiography, novel, colonialism, postcolonialism, literature

*د. إيمان مرداسي

1. مقدمة:

لقد كان لاهتمام الدارسين والباحثين في مجال الأجناس الأدبية أثر كبير على الأدب العربي الحديث والمعاصر؛ حيث شهد اتساعا كبيرا في فنونه وأغراضه (رواية، قصة، سيرة ذاتية...)، وتفاعل بشكل ملحوظ مع آداب الأمم الأخرى حيث أمست هذه الفنون جزءا لا يتجزأ من أدبنا العربي، وإذا كان الحديث في هذا المقام مخصصا لفن "السيرة الذاتية" دون سواها من الأجناس الأخرى، كان من الحفي بنا أن نتعرف أكثر على نشأتها وعلاقتها بفن الرواية التي كثيرا ما يقع بينهما نوع من التماهي مع التركيز على تحليلاتها في الأدب العربي عامة والجزائري خاصة.

2. مفهوم السيرة لغة:

يعرفها ابن منظور بقوله: "السيرة الطريقة. يقال: سار بهم سيرة حسنة. والسيرة: الهيئة، وفي التنزيل العزيز: (سنعيدها سيرتها الأولى) -سورة طه-. وسير سيرة: حدث أحاديث الأوائل..."¹، ومن المصطلح عليه أن السيرة هي فن من الفنون السردية تجمع بين القصة والتاريخ وهي تتناول شخصية من الشخصيات البارزة لجلاء جوانبها والكشف عن مكانم العظمة فيها؛ فهي إذا ولادة للماضي عن طريق استرجاع مجموعة من الذكريات الكامنة في ذاكرته الشخصية، وهذا ما جعل علماء النفس والاجتماع يؤكدون بأن أدب السيرة الذاتية يمنح المؤلف إعادة رسم تاريخه الخاص -إذا كانت السيرة ذاتية-، أو إعادة رسم تاريخ غيره -إذا كانت السيرة غيرية-؛ لذا من الحفي بنا أن نتعرف أولا على تعريف الرواية كجنس أدبي باعتبار أن السيرة في حقيقة الأمر تحمل جميع خصائص ومكونات الرواية غير أن الاختلاف الوحيد أنها تسلط الضوء على حياة شخصية معينة سواء كانت هذه الشخصية: تاريخية، سياسية، أدبية،...، حيث تتبع مراحلها المختلفة وأهم تطوراتها، وكثيرا ما تتماهى الرواية مع السيرة في عديد المواقف فلا نستطيع التفريق بينهما في أعمال كثيرة.

3. المفهوم الاصطلاحي لفن السيرة الذاتية وعلاقتها بفن الرواية:

تعد السيرة الذاتية من بين أهم الأجناس الأدبية الثرية التي تقوم على مبدأ السرد إلى جانب الرواية، والقصة، والحكاية،...، فالسيرة الذاتية في أبسط تعريفاتها يمكن القول بأنها سرد فني طويل يكتب في شكل نثري تجمع بين القصة والتاريخ، تقوم بتسليط الضوء على شخصية من الشخصيات البارزة؛ سواء كانت شخصية: تاريخية، أو سياسية، أو دينية، أو أدبية،...، لتقصي جوانبها والكشف عن عناصر العظمة فيها، وتبين القيم الإنسانية التي تحويها الشخصية؛ من أجل التعرف عليها أكثر للاقتداء بها وأخذ العبرة منها، وللإشارة في هذا المقام فإن فن السيرة نوعان:

1.3. السيرة الذاتية:

وفيهما يكتب صاحب العمل عن نفسه مثل: كتاب "حياتي" لـ أحمد أمين، وكتاب "الأيام" لـ طه حسين، كتاب "سبعون" لـ مخايل نعيمة،....

2.3. السيرة الغيرية:

وفيهما يكون كاتب السيرة شخصا آخر غير الشخصية التي يدور حولها الموضوع، أي ينوب شخص آخر في عملية الكتابة عن صاحبها وهذا ما نجد مثلا في "عبقريّة عمر" و"عبقريّ الاصلاح و التعليم محمد عبده" لـ عباس محمود العقاد و"عثمان بن عفان" لـ محمد حسين هيكل،...

على كاتب السيرة الذاتية أن يتحرى مجموعة من الموصفات أهمها تحري الحقيقة في عملية نقل الأحداث، لأن الخيال الزائد يخل بأهم خاصية من خصائص السيرة وهي المصادقية في نقل حقائق صاحبها دون تزيف أو تنميق.

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام بأن السيرة الذاتية تتميز بعدد الخصائص أهمها أن يتبنى الكاتب التسلسل الزمني في نقل الحقائق والأحداث مع انتقاء المواقف الهامة في حياة صاحب السيرة التي تحمل دلالة وعبرة مع عرضها على القراء بطريقة مؤثرة، وبالرغم من أن السيرة يجب أن تتقصى الحقيقة في نقل الأحداث إلا أنها تحمل نفحا من الخيال لا يخل بالتاريخ، وإنما يضيف نوعا من الحيوية والإثارة والتشويق على العمل الفني، كما تتميز السيرة الذاتية بالشمولية؛ كونها تلم بكل الأحداث التي مرت في حياة صاحب السيرة، حتى يتمكن القارئ أو المتلقي من تكوين صورة مكتملة له، إلى جانب ذلك يجب أن يعتمد الكاتب اللغة السهلة البسيطة الواضحة والموجزة مع الاستعانة بحسن التنسيق والترتيب للأحداث.

تتشترك كتب السيرة مع فن الرواية في كثيرا من الجزئيات والمكونات؛ والدليل على ذلك أن كتب السيرة الذاتية كثيرا ما توضع في شكل روايات يأبى صاحبها الإفصاح عنها، لذلك وجب التعرف على مفهوم الرواية لنقف على أهم الخصائص المشتركة بينهما:

4. تعريف الرواية:

تعرف الرواية لغة بأنها مشتقة من الفعل روى يروي رواية، فنقول روى الحديث أو الخبر بمعنى قصه، بمعنى أنبأ به وتحدث، وراو اسم الفاعل منه، و"الرواية" أكثر مصطلحات هذا الحقل الدلالي استعمالا عند العرب القدماء، لأنها أكثر الأدوات المعتمدة لنقل الأخبار وكل ما تعلق بأمور حياتهم عن أسلافهم وتوريثها لخلفهم.²

أما الرواية في التعريف الاصطلاحي فهي جنس من الأجناس الأدبية النثرية المطولة، وهي أكبر الأنواع القصصية — القصة، القصة القصير، الأقصوصة، الحكاية،... — حجما؛ فهي عبارة عن سرد لأحداث واقعية أو خيالية مرتبة ترتيبا معينا هدفها الإمتاع والتثقيف للسامعين أو القراء، ويعرفها ميشيل زيرافا بأنها "نوع سردي نثري في مستوى أول، وفي مستوى ثان يكون هذا القصص، حكاية خيالية. وفي الوقت نفسه خيال ذو طابع تاريخي عميق. وأخيرا فإن الرواية فن في أجزائها كما في كلها؛ وهي تبرز

في شكل خطاب موجه ليحدث مفعولا جماليا، بفضل استعمال بعض المحسنات³، وللرواية أنواع كثيرة: بوليسية، عاطفية، سياسية، ...، وتصنف أنواع الرواية بحسب المواضيع التي تتناولها، كما أن الرواية تتكون من مجموعة من العناصر والمكونات التي تتظافر في ما بينها للحصول على عمل متكامل يستحق لقب عمل روائي؛ أو ما يعرف بـ "الرواية الفنية"، وتمثل هذه العناصر في: الزمان، المكان، الشخصيات -رئيسية وثانوية-، الفكرة أو المغزى، الأحداث، العقدة أو الحبكة،....، وهنا تلتقي الرواية بفن السيرة الذاتية؛ فهذه العناصر هي عناصر مشتركة بين الرواية والسيرة الذاتية بالرغم من وجود بعض الاختلاف البسيط في الزمان والمكان والشخصيات، فإذا صرح الكاتب بأن هذا العمل هو سيرته الخاصة فهو يستغني على عنصر التخفي وهو تغيير الأزمنة والأمكنة والأسماء الحقيقية للشخصيات داخل العمل وإذا لم يرد الكاتب الإفصاح عن شخصيته الحقيقية استعان بعناصر التخفي السالفة الذكر.

من خلال المعطيات السابقة التي قدمت حول فن السيرة الذاتية وفن الرواية؛ نكتشف جليا أنه لا يمكن الفصل بينهما فكثيرا ما يقع نوع من التماهي بين هذين النوعين، وهذا ما أكدته عبد الله توفيق في كتابه "السيرة الذاتية في النقد العربي الحديث والمعاصر"؛ حيث يقر بأنه "يمكننا اعتبار أن الشيء الوحيد الذي يميز السيرة الذاتية والرواية في نظرنا هو تصريح الكاتب، فهو عندما يقول لنا هذه سيرة حياتي نقول أنها سيرة ذاتية، وعندما يقول هذه رواية نقول معه أيضا أنها رواية"⁴.

ويقر فيليب لوجون أن التداخل الحاصل بين الرواية والسيرة الذاتية ولد نوع من التجانس والتمازج، حيث يرى "أن رواية السيرة الذاتية في الوقت نفسه تقترب من السير ذاتية بدرجة تجعل المرء يشك في وجود بين الجنسين"⁵، كما يقر أن هذا التماهي بين الأجناس الأدبية ولد نوعا من العوائق بينها، حيث يقول في نفس السياق: "...لا شك أن السيرة الذاتية من أعقد وأصعب الأجناس الأدبية، ونظرا لالتقائها مع أجناس أدبية، لعل أبرزها الرواية، فقد أفرز هذا التلاقح عدة إشكاليات خاصة على مستوى التجنيس الأدبي"⁶.

وللسيرة الذاتية تسميات أخرى كالمغازي -لوصفها الغزوات والمعارك والرحلات-، وتسمى أيضا كتب الطبقات لتقسيمها سير الأشخاص إلى طبقات، وقد تظهر في شكل مذكرات؛ "والتي هي نظرة إلى وراء أو على الأقل نظرة خارج النفس للبحث عن شهادة حول حقيقة زمنية وهنا تدوب المذكرات في فكرة البحث الشخصي أو الاعترافات أو السيرة الذاتية وأهم هذه المذكرات التي هي في حقيقة الأمر تقترب إلى حد بعيد من فن السيرة الذاتية نجد مذكرات "الأمل" للجنرال شارل ديغول"⁷.

5. حضور السيرة الذاتية في التراث العالمي:

1.5. جذورها في الأدب الغربية:

يعود هذا النوع من الكتابة إلى القديم سواء في الأدب الغربي أو الأدب العربي، إلا أنه عرف دون تحديد وتوضيح لمقوماته ومعامله الفنية، حيث انقسم الدارسون والباحثون حول مصدر فن السيرة؛ فمنهم من يقر بأن فن السيرة ظهر كفن أدبي

مستقل عند اليونان حوالى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد مع ظهور فن القص في الأدب القديم باعتبار أن السيرة هي قصة تنقل حياة صاحبها، حيث تعد القصة من أقدم الأنواع الأدبية في التراث العلمي، لذلك وجب علينا أن نفرق في هذا المقام بين مرحلتين من تطورها؛ أولها المرحلة البدائية لفن القص في الآداب العالمية؛ فقد "كانت القصة في البدء حكاية لمغامرات غير عادية وغير مشابهة للحقيقة، محورها الحب، وهذا ما جرى عليه الأدب اليوناني حتى نهاية القرن الأول الميلادي؛ فقد كانت القصة مملوءة بحوادث الاختطاف على يد القراصنة والاكتشاف والتعارف والترحال في البلاد الخرافية...، ومن أشهر القصص في هذه الفترة: 'تياجين وشاريكليه' لهليودور"⁸.

لقد حاولت هاته القصص والحكايات والأساطير أن تضع اللبنة الأولى التي أسست لفن السيرة الذاتية في ما بعد، هذا الفن الذي لم يجد الجو الملائم لظهوره إلا مع بدايات القرن السابع عشر، وظهور بؤادر الحداثة في الأدب العالمي، ومنهم من يرى بأن هذا الجنس الأدبي ذاع صيته في أوروبا في بدايات القرن العشرين، "غير أن أقدم ما كتب في فن السيرة كإرهاصات أولى كان على يد شخصين يونانيين هما ثيوفراستوس (372 ق.م-288 ق.م) وبلو تارك (122 ق.م-48 ق.م)، وقد ظهرت السيرة في الأدب الإنجليزي بداية عام 1579م، وكان أول هذه السير موقوفا على حياة القديسين؛ حيث كانت تتناول حياة الأتقياء في صورة من الوفاة والرقى، ومن أشهرها اعترافات القديس أوغسطين التي تعتبر قمة الاعترافات الدينية، وقد اتخذت السير الذاتية في العصور الوسطى عند الغرب صورا عدة كالمذكرات واليوميات والذكريات والاعترافات"⁹، وقد كان لظهور الرومانسية* في أوروبا أواخر القرن الثامن عشر الأثر الكبير في تطور فن السيرة.

2.5. جذورها في الأدب العربي:

لقد أطلق العرب القدماء تسميات عديدة ومتنوعة لفن السيرة الذاتية أهمها: كتب السير، كتب المغازي، كتب الطبقات،....، حيث تحيل كلمة سير في بداياتها إلى ما حدث من اهتمام بجمع الحديث لأن فيه كل ما كان يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم من عبادات وتشريع ومعاملات وفيه وعظ وإرشاد وكل ما يتعلق بحياته في مكة والمدينة، وقد مرت السيرة في الأدب العربي القديم بمرحلتين هما: مرحلة السيرة التاريخية؛ وظهرت مع ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية، أهمها ما كتب حول سيرة الرسول ﷺ، وهذا ما نجده مثلا في كتاب "السيرة النبوية" لـ عبد الملك ابن هشام، وكتاب "السيرة النبوية" لـ محمد بناسحاق، وكتاب "المغازي" لـ أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي،...، أما المرحلة الثانية فهي السيرة ذات الطابع الأدبي؛ وظهرت مع حلول القرن الخامس هجري أهمها كتاب "الإمتاع والمؤانسة" وكتاب "أخلاق الوزيرين" لـ أبو حيان التوحيدي، كتاب "زاد المعاد في هدي خير العباد" لـ ابن قيم الجوزية، كتاب "الشمائل المحمدية" لـ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي،...

لم يقتصر أدب السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم على التركيز على حياة شخصية واحدة فقط، بل تعداها إلى نوع آخر وهو ما عرف بالسيرة الشعبية أي القصص الشعبي الذي ينمو ويعيش بدافع اللاشعور الجمعي، ويرتبط بتواريخ ووقائع وأحداث عن قبيلة ما، تغلب عليها المبالغات والخوارق التي تضيفها عليها المخيلة الشعبية مما يدرجها في عوالم الخرافات والأساطير.¹⁰

6. ملامح الكتابات سير ذاتية في الأدب الغربي والعربي الحديث والمعاصر:

1.6. ملامحها في الثقافة الغربية:

لقد اقتحم مصطلح السيرة الذاتية **autobiographie*** الساحة الأدبية الغربية في بداية تشكلها بمعنيين مختلفين، أولهما اقترحه معجم (لاروس la Rousse) عام 1866م بوصفها حياة فرد مكتوبة من طرفه، أما المعنى الثاني فينظر إلى السيرة الذاتية كوثقها نص يعبر فيها صاحبها عن حياته ومشاعره.¹¹

ومن هذا نستنتج أن التعريف الثاني أعم وأشمل من الأول، وهو أكثر وضوحاً للقارئ الذي يمكنه من تفهم مقصدية الكاتب؛ سواء الضمنية أو المصرح بها، ولو سلطنا الضوء على بؤادر هذا الفن في الأدب الحديث لوجدنا أن أول محاولة كانت على يد جان جاك روسو من خلال كتابه "اعترافات"؛ والذي يتحدث فيه الكاتب عن ثلاثة وخمسون سنة من حياته، بدءاً بتأليفها سنة 1765م وانتهى من الكتابة عام 1769م، لكن الكتاب لم يتشر حتى 1782م أي بعد أربعة سنوات من وفاته، ثم توالى الأعمال السير ذاتية الحقيقية مع مطلع القرن العشرين، مع انتشار مبادئ الرومانسية وعنايتها بالفرد وأحاسيسه، واتصفت هذه السير بالجرأة والصراحة، "ومن أشهر السير في الأدب الإنجليزي ترجمة وليم بتلر بيتس سنة 1938م، وجورج مور الذي كتب ثلاثة ترجمات (اعترافات شاب-مذكرات حياتي المنسية-سلاماً ووداعاً)، ومن أشهر السير في الأدب الفرنسي يوميات أندريه جيد ويوميات جابريل مارسيل، ومن أشهر السير في الأدب الألماني رسائل جوته، وكتابه الآخر (الشعر والحقيقة)، أما في الأدب الروسي فقد كانت اعترافات تولستوي من أهم الأعمال في فن السيرة الذاتية في القرن العشرين"¹²

2.6. ملامحه في الأدب العربي الحديث والمعاصر:

تميز الأدب العربي الحديث والمعاصر بنوع من التطور والرقى؛ بسبب الانفتاح الذي عاشه أدبنا على آداب الأمم الأخرى، وقد كان هذا الانفتاح نتيجة لمجموعة من العوامل التي بعثت الروح من جديد في أدبنا العربي بعد ما عانى نوعاً من الركود والجمود في عصر الضعف والانحطاط، ومن أهم هذه العوامل: الترجمة، وسلسلة البعثات العلمية والاحتكاك المباشر والغير مباشر بثقافات الأمم الأخرى؛ ويمكن تقسيم ملامح السيرة الذاتية في الأدب العربي إلى مرحلتين:

1.2.6 كتابات ما قبل القرن العشرين:

لقد كان من البديهي أن تتميز الكتابات السير ذاتية التي سبقت القرن العشرين بنوع من محدودية القيمة الأدبية لأن تلك الأعمال مثلت بحق البداية الحقيقية لفن السيرة الذاتية في أدبنا العربي الحديث، وفي حقيقة الأمر يمكن الحديث في هذا المقام على ثلاثة أعمال كبرى أسست لهذا الفن وهي:

* سيرة رفاعة رافع الطهطاوي:

وجاءت تحت عنوان "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"؛ وهو كتاب يلخص فيه صاحبه سنوات دراسته في فرنسا، حيث رشح بأن يكون مشرفاً على رحلة للتلاميذ إلى باريس، "وإن كان يؤخذ على هذه السيرة بأنه كان متعنثاً في أسلوبه، متذبذباً بين أسلوب التقرير والشروح والتعليق الأزهرية، وبين محاولة ابتداء أسلوب خاص به، خاصة حين كان يترجم بعض المصطلحات التي لم تعرفها اللغة العربية من قبل"¹³.

* سيرة علي مبارك:

والتي عنوانها بـ "علم الدين"، وقد قسمه صاحبه إلى فصول سماها "المسامرات"؛ وهي عبارة عن محاورات تدور بين الشيخ المصري والخواجا الإنجليزي الذي رافقه صدفة في سفره، "وهذه السيرة غنية بمعارف كثيرة، وهي معارف تطلع من خلالها على وجوه حياتنا التعليمية في القرن الماضي.... بحيث تعد هذه الترجمة وثيقة خطيرة للتعليم في عهد إسماعيل"¹⁴.

* سيرة أحمد فارس الشدياق:

وذلك من خلال كتابه "الساق على الساق فيما هو الفارياق"، "ولكن غرامه باللغة العربية وانقياده لطبيعة المقامة، واسرافه في التورية....، وإضافة إلى غرامه بالاستطراد، والمتراذفات اللغوية، لإظهار قدرته اللغوية، كل ذلك حال دون توفر المتعة الجمالية للسيرة، لتكلفه وولوعه بالحسنات البديعية، دون إدراك بمقدمات هذا الفن"¹⁵.

2.2.6. كتابات القرن العشرين:

يعد مطلع القرن العشرين فترة ازدهار عاشها هذا الفن، وذلك عن طريق تعدد صوره وأشكاله وطرائقه؛ كالمذكرات، واليوميات، والذكرات، والاعترافات.... وأيضاً من خلال مجموع الروايات التي يتخفى صاحبها خلف شخصية البطل، وهذا ما وجدناه عند طه حسين، وتوفيق الحكيم، والمازني....

"ويذكر من اليوميات (يوميات مصطفى عبد الرازق)، ويوميات (نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم، ومن المذكرات (مذكراتي في نصف قرن) لأحمد شفيق، ومذكرات محمد فريد أبو حديد، و(مذكراتي) لعبد الرحمان الراجحي، و(خليها على الله) ليحيى حقي، ومذكرات الشابي، وقد تعددت اتجاهات الكتاب في الشكل الفني فاتخذوا الشكل الروائي تارة، وأسلوب المقالة تارة أخرى، وأسلوب المؤرخ تارة ثالثة"¹⁶.

يعتبر الأديب المصري طه حسين الأب الروحي لفن السيرة في الأدب العربي الحديث وذلك من خلال كتابه "الأيام" الذي أورده في جزئين عامي (1926م و1939م)، حيث تعتبر أشهر سيرة ذاتية في الأدب العربي الحديث، ما دفع العديد من الأدباء لتسجيل حياتهم وذلك من خلال نقل تجربتهم إلى الأجيال اللاحقة، فكتب الأديب المصري أحمد أمين "حياتي" عام 1950م، و"قصة حياة" لـ إبراهيم عبد القادر المازني، و"أنا" لـ عباس محمود العقاد ثم أردفه بسيرة ثانية جاءت تحت عنوان "حياة قلم"، وسرعان ما انتشر هذا الفن في البلاد العربية فكتب توفيق الحكيم "سجن العمر"، وميخائيل نعيمة "سبعون" في ثلاثة

أجزاء، و"قصتي مع الشعر" ل نزار قباني، "غربة الراعي" ل إحسان عبد القدوس، و"رحلة جبلية....رحلة صعبة" ل فدوى طوفان،...

7. التجربة السيرية الكولونيالية وما بعد الكولونيالية في الجزائر:

يمكن تقسيم التجربة السيرية الجزائرية إلى قسمين هما:

1.7. التجربة السيرية الكولونيالية:

أما في الأدب الجزائري فقد كان ظهور فن السيرة وغيره من الفنون الأخرى محتشما إلى حد بعيد، وذلك راجع إلى الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية التي عاشتها الجزائر، بالرغم من أن الجزائر قبل الاحتلال كانت تملك مؤسسات ثقافية تتمشى وواقع الإنسان الجزائري ؛ لقد "كانت ثقافة الجزائر، من قبل إسلامية عربية، وكان لهذه الثقافة كيانها وعناصرها المستمدة من الدين والعلم والتقاليد القومية والاجتماعية، وكان لها مراكز ومؤسسات شعبية منها المدارس وهي بمستوى المدارس الابتدائية و 'الزوايا' وهي المراكز الدينية التي تعد الطلاب للالتحاق بالجامعات الإسلامية كالأزهر في مصر، والزيتونة بتونس، وجامع القرويين بالمغرب"¹⁷، غير أنه ومنذ نزول المستعمر الفرنسي في سيدي فرج سعى جاهدا إلى طمس الثقافة والهوية الجزائرية ومحو المقومات الإسلامية بشتى الطرق والوسائل كتحويل الأماكن الدينية إلى ثكنات ومستشفيات عسكرية، مع منع كل التجمعات، وسعت إلى اعتماد سياسة التجهيل وغلق المساجد والزوايا، حيث يقول أحد المستشرقين: "إن المساجد والزوايا مقتصرة على تعليم القرآن الذي يحفظه التلميذ عن ظهر قلب، أما المدارس التي يستطيع أن يتعلم فيها مواد أخرى، فعددتها محصور جدا، ويبدو أن هذا العدد يتناقص باستمرار"¹⁸.

لقد ارتبط الإنتاج الأدبي في مجال السيرة في المرحلة الكولونيالية بالظروف السياسية والثقافية والاجتماعية القاهرة التي عاشتها بلادنا، فقد حاولت أغلب الأعمال في هذه الفترة أن تصف بشاعة ما تعيشه الجزائر تحت وطأة الاستعمار وذلك من خلال نقل تجربتهم الشخصية، إن هذا الانفتاح على الواقع الذي عاشه الروائي والكاتب الجزائري كان ضرورة تملئها روح العصر والأوضاع في تلك الفترة، غير أن أغلب الأعمال السيرية في هذه المرحلة كتبت باللغة الفرنسية؛ لأن أغلب المثقفين فيها كانت ثقافتهم فرنسية ك **مولود فرعون**، **كاتب يسين**، **جميلة دباش**، **مولود معمري**،.... وغيرهم، ومن الجدير بالذكر هنا أن السيرة الذاتية في الجزائر ارتبطت ارتباطا وثيقا بفن الرواية منذ مرحلة التأسيس، حيث يرى الناقد الجزائري **أحمد حيدوش** "بأن ظاهرة اللجوء إلى السيرة الذاتية في السيرة الذاتية في الجزائر تكاد تشكل القاسم المشترك الذي تلتقي عنده جل الروايات، إن لم تكن منذ نشأة الرواية الجزائرية إلى آخر ما صدر في المدة الأخيرة"¹⁹.

ويمكن أن نتحدث في هذا المقام على أهم السير الذاتية التي جاءت في قالب الرواية والتي اعتبرها النقاد بحق إرغاصات لهذا الفن، كرواية "ابن الفقير" ل **مولود فرعون** والتي تعد الميلاذ الحقيقي لفن السيرة في الأدب الجزائري، ورواية "الدار الكبيرة، الحريق، مهنة النول" ل **محمد ديب**،... وهناك من النقاد من تحدث على نوع آخر من فن السيرة في الأدب الجزائري؛ وهو ما عرف

بالسيرة الذاتية الجماعية، وهذا ما نجده في رواية "نجمة" لـ كاتيباسين، حيث يقول الناقد الطاهر بن جلون: "إن كاتب ياسين الذي يعد أكبر أديب مغربي، لم يتبن الأوتوبيوغرافيا على غرار الأسلوب المعهود: إنني ولدت... ولكنه ابتدع شكلا جديدا للأوتوبيوغرافيا يتمثل في السيرة الذاتية للجزائر، وهنا تكمن حقيقة أصالة 'نجمة'، وقد قال كاتب ياسين في استجواب له بأن "نجمة" هي روح الجزائر الممزقة من البداية والمهدودة بشتى التوترات الداخلية"²⁰.

2.7. التجربة السيرية ما بعد الكولونيالية:

إن الدمار السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي... الذي خلفه الاستعمار الفرنسي في الواقع الجزائري انعكس بطريقة أو بأخرى على الأدب، فعاش الأدب الجزائري نوعا من السبات منذ الاستقلال وإلى غاية مطلع السبعينيات من القرن الماضي، هذا الواقع الذي ألقى بظلاله على الإنتاج الروائي الجزائري إلى مطلع السبعينيات، غير أن هذا لا ينفي وجود بعض الأعمال السيرية المكتوبة باللغة الفرنسية، "الأفيون والعصى" L'OPIUM ET LEBATON لـ مولود معمري عام 1965م، و"رقصة الملك" LA DANCE DU ROI لـ محمد ديب عام 1968م،...؛ أما مع بداية السبعينيات فقد شهد فن السيرة استفاقة نوعية لم يعرفها المشهد السيري من قبل؛ وقد كان هذا نتاج التغيرات التي عاشتها الجزائر في هذه المرحلة "فقد مثلت الجزائر نموذجا لأزمة الوطن والمواطن في العالم العربي، حيث قدم هذا البلد أكثر من مليون شهيد، لنيل استقلاله، ثم تبني سياسات التعريب، والعودة لأحضان الثقافة العربية والإسلامية"²¹، فبرز العديد من كتاب فن السيرة بأعمال فذة مثلت الميلاذ الحقيقي لهذا الفن في الأدب الجزائري الحديث أمثال: "رمانة" عام 1971م لـ طاهر وطار، "نهاية الأمس" سنة 1975م لـ عبد الحميد بن هدوقة، "طبور في الظهرة" عام 1976م لـ مرزاق بقطاش،....

لقد كان للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية الأثر الكبير في تأخر ظهور فن السيرة في الأدب الجزائري، وذلك إذا ما قرناه بالأدب العربي لأن الاستعمار الفرنسي حاول طمس الهوية العربية وفرض ثقافته بشتى الطرق لذلك كانت السيرة الذاتية المكتوبة باللغة الفرنسية أسبق في الظهور من تلك المكتوبة باللغة العربية، أما في ثمانينيات القرن العشرين فقد بقيت السيرة في الأدب الجزائري تسير وفق وتيرة منتظمة نحو القمة عن طريق مجموعة من الرواد اللذين واصلوا مسيرتهم التي بدؤوها من قبل، ومن أشهر الروايات في هذه المرحلة: الطاهر وطار من خلال "العشق والموت في الزمن الحراشي" عام 1982م، و"عرس بغل" سنة 1983م لطاهر وطار أيضا، "على جبال الظهرة" عام 1983م و"السعير" عام 1986م لـ محمد ساري، و"قفزة في الظلام" سنة 1986م لـ مرزاق بقطاش، عبد الحميد بن هدوقة في "بان الصبح" عام 1980م، و"الانفجار" عام 1983 و"هموم الزمن الفلاقي" عام 1986م لـ محمد مفلح،.....

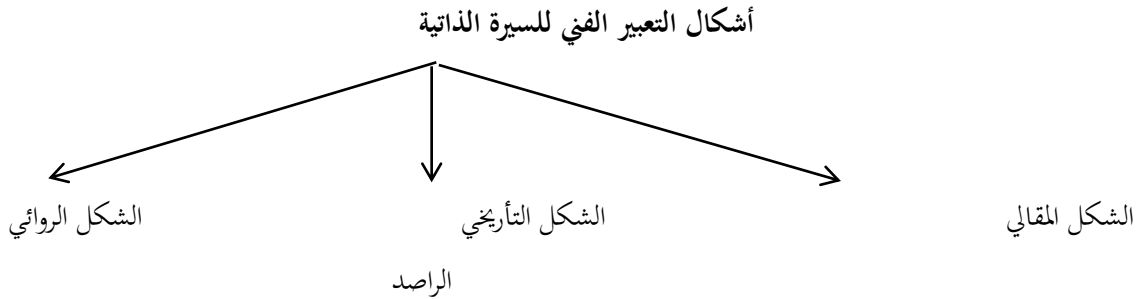
إن الظروف والأوضاع التي عاشها المبدع الجزائري أثرت بطريقة أو بأخرى في إنتاجه الثقافي، فقد "انفجرت الأزمة في منتصف الثمانينيات: بطالة، وغلاء، وفساد، لينتهي الأمر إلى حرب شبه أهلية، أتت على الأخضر واليابس، في مواجهة دامية بين العسكر والعلمانيين الذين ساندوهم وبين الإسلاميين"²².

ومع حلول التسعينيات تغيرت الأوضاع التي كان يعيشها الإنسان الجزائري؛ وذلك مع بداية ما عرف بالعشرية السوداء، تلك الظروف السياسية القاهرة التي مرت على الجزائريين وأثرت بطريقة أو بأخرى على الكتاب باعتبار أن الإنسان ابن

بيئته، وظهرت العديد من الأعمال الفنية التي تنتمي لفن السيرة الذاتية؛ والتي حاكت الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي للجزائر ومن أشهر الكتابات السيرية في هذه المرحلة: "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" عام 1999م ل الطاهر وطار، و"غدا يوم جديد" سنة 1992م ل عبد الحميد بن هدوقة، و"أغنية البعث والموت" 1993م ل مرزاق بقطاش...

لقد مثل مطلع القرن الحادي والعشرين ميلادا جديدا لأسماء لامعة في سماء السيرة الذاتية الجزائرية أمثال: مرزاق بقطاش في "دم الغزال"، أحلام مستغامي في "ذاكرة الجسد، فوضى الحواس، عابر سرير"، وباسمينة خضرا،... وغيرهم؛ هذه الأسماء التي حاولت أن تعطي نظرة جديدة لفن السيرة الذاتية سواء من حيث اللغة أو الأسلوب أو طريقة الكتابة.

إن المتتبع لمسار السيرة الذاتية في الأدب الجزائري يجد بأن كتابها اعتمدوا على الشكل الروائي في كتابتها، بالرغم من وجود ثلاثة أشكال من التعبير الفني للسيرة الذاتية في الأدب العربي وهي كالتالي:



*الشكل المقالي:

وفيه يبني المؤلف سيرته في مجموعة من الفقرات (أو المقالات) وينهج في كل فقرة من الفقرات نهج المقالة التي تقوم على التفسير والتدليل، ويتكون الشكل المقالي من مجموعة من الفقرات تصوغ سيرة حياة صاحبها، وفي هذا النوع من السير لا نبحت على تسلسل الأحداث، والاتساق في البناء بالصورة المحكمة، لأنه يغلب على صاحبها التأمل.

*الشكل التاريخي الراصد:

وهو الذي ينهج فيه المؤلف نهج المؤرخ في تتبع سيرة حياته في شكل تصاعدي للأحداث، وبحيادية تامة، وكأنه يرصد حيات غيره، وتروى بشكل علمي صارم، فلا مجال للخيال.

*الشكل الروائي:

وهو ما يعرف في الأدب الغربي بـ "السيرة الذاتية الروائية"، حيث يعتمد الكاتب المزج بين أحداث حياته (الواقعية)، والشكل الروائي الذي يعتمد السرد والتصوير، واستخدام الخيال داخله يكون محدود.²³

8. الخاتمة:

لقد أصبح فن السيرة اليوم لا يقتصر على معالجة أفعال شخص، وتأثيره في زمنه، وتأثره بزمنه، ولكن أصبح يبرز الشخصية كقيمة، فكان من الضروري أن يأخذ هذا الفن من علوم أخرى؛ كعلم النفس وعلم الوراثة أشياء كثيرة، ويضعها في قالب أدبي يأخذ من الرواية والمسرحية وغيرهما، ولم يقتصر فن السيرة الذاتية في الأدب العربي عامة على الأدباء فقط بل تعداها إلى السياسيين والفنانين... وكل الشخصيات المشهورة في المجتمع، أما في الأدب الجزائري فقد مر فن السيرة الذاتية بمرحلتين كبيرتين هما الفترة الكولونيالية (الاستعمارية)، والفترة ما بعد الكولونيالية (ما بعد الاستقلال) وقد تميزت كل مرحلة ببروز مجموعة من الرواد ومجموعة من الخصائص التي ميزتها عن المرحلة التي سبقتها، إن التجربة السيرية في الجزائر سواء المكتوبة باللغة العربية أو المكتوبة باللغة الفرنسية تعد تجربة رائدة في العالم العربي لأنها تعبر بالفعل عن واقع وثقافة المجتمع الجزائري وتاريخه.

¹ - ابن منظور، 2003، لسان العرب، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت-، المجلد الرابع، الطبعة الأولى، مادة روى، ص 390.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 451.

³ - المناصرة، عز الدين، 2010، الأجناس الأدبية في ضوء الشعريات المقارنة -قراءة مونتاجية-، دار الراجعية للنشر والتوزيع، الأردن -عمان-، ص 49

⁴ - توفيق، عبد الله، 2012، السيرة الذاتية في النقد العربي الحديث والمعاصر-مقاربة في نقد النقد-، عالم الكتاب الحديث، الطبعة الأولى، الأردن -عمان-، ص 86.

⁵ - لوجون، فيليب، 1994، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ص 49.

⁶ - المرجع نفسه، ص 49.

⁷ - المناصرة، عز الدين، الأجناس الأدبية في ضوء الشعريات المقارنة -قراءة مونتاجية-، ص 53.

⁸ - فانسان، ك. 2009، نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة: عبد الرزاق الأصفر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ص 230.

⁹ - ينظر: عبد الحكيم محمد، شعبان، 2014، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الأردن -عمان-، ص 35-36.

*الرومانسية: وتعرف أيضا بالرومانتيكية أو الإبداعية، وهي حركة فنية وأدبية وفكرية نشأت في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر للميلاد وسرعان ما راجت في بلدان أوروبية أخرى، وخاصة في إنجلترا وألمانيا وإسبانيا، وقد جاءت كرد فعل على الكلاسيكية التي مجدت العقل على حساب العاطفة، وتسمى أيضا الرومانتيكية أو الإبداعية؛ تؤكد الرومانسية بأن قوة المشاعر والعواطف والخيال الجامع هو المصدر الحقيقي والأصيل للتجارب الإنسانية، ومن أهم روادها: جان جاك روسو، فيكتور هوجو، بايرون،...

¹⁰ - صحراوي، إبراهيم، 2008، السرد العربي القديم الأنواع والوظائف والبنىات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر، ص 83.

* **autobiographie** : هناك من يقر بأن هذا المصطلح استعمل أول مرة في القرن التاسع عشر وبالتحديد عام 1832م بفرنسا، غير أن أصول المصطلح يونانية وتتكون من الذات (Auto)، والحياة (Bio)، والكتابة (Graphie).

¹¹ - ينظر: لوجون، فيليب السيرة الذاتية، ص 10.

¹² - ينظر: المرجع نفسه، ص 37.

- ¹³ - المرجع نفسه، ص 32.
- ¹⁴ - المرجع نفسه، ص 32.
- ¹⁵ - ينظر: المرجع نفسه، ص 33.
- ¹⁶ - المرجع نفسه، ص 34.
- ¹⁷ - ينظر: دحو، العربي، 2011، إطلاقات مقارب للأدب الجزائري الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة – الجزائر، ص 24.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص 23.
- ¹⁹ - حيدوش، أحمد، 2007م، السيرة الذاتية في الرواية، مجلة المعارف، العدد الثاني، ص 18.
- ²⁰ - سعد الله، أبو القاسم، 1977، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، الطبعة الثانية، ص 110.
- ²¹ - عطية جمعة، مصطفى، 2010، ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة الذات-الوطن-الهوية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان –الأردن- ص 97.
- ²² - المرجع نفسه، ص 97.
- ²³ - ينظر: عبد الحكيم مُجدّ، شعبان، 2014، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان –الأردن-، ص 41 إلى 75.

1. ابن منظور، 2003، لسان العرب، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت -، المجلد الرابع، الطبعة الأولى.
2. توفيق، عبد الله، 2012، السيرة الذاتية في النقد العربي الحديث والمعاصر - مقارنة في نقد النقد -، عالم الكتاب الحديث، الطبعة الأولى، الأردن - عمان.
3. حيدوش، أحمد، 2007م، السيرة الذاتية في الرواية، مجلة المعارف، العدد الثاني
4. دحو، العربي، 2011، إطلالات مقارب للأدب الجزائري الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة - الجزائر.
5. سعد الله، أبو القاسم، 1977، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، الطبعة الثانية.
6. صحراوي، إبراهيم، 2008، السرد العربي القديم الأنواع والوظائف والبنيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر.
7. عبد الحكيم محمد، شعبان، 2014، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان - الأردن.
8. عبد الحكيم محمد، شعبان، 2014، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الأردن - عمان.
9. عطية جمعة، مصطفى، 2010، ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة الذات - الوطن - الهوية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان - الأردن.
10. فانسان، ك. 2009، نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة: عبد الرزاق الأصغر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق.
11. لوجون، فيليب، 1994، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى.
12. المناصرة، عز الدين، 2010، الأجناس الأدبية في ضوء الشعريات المقارنة - قراءة مونتاجية -، دار الراجية للنشر والتوزيع، الأردن - عمان.